لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾.

وقرأ عبيد بن عمير لا يذاقون فيها الموت وقرأ عبد الله لا يذوقون فيها طعم الموت.

فإن قُلْتَ: كيف استثنيت الموتة الأولى المذوقة قبل دخول الجنة من الموت المنفي ذوقه فيها[1]؟ **قُلْتُ:** أريد أن يقال لا يذوقون فيها الموت البتة فوضع قوله: ﴿إلا الموتة الأولى﴾ موضع ذلك لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال كأنه قيل: إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل، فإنهم يذوقونها وقرئ ووقاهم بالتشديد.

فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾.

﴿فضلاً من ربك﴾ عطاء من ربك وثوابًا يعني: كل ما أعطى المتقين من نعيم الجنة والنجاة من النار، وقرئ فضل أي ذلك فضل.

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾.

﴿فإنما يسرناه بلسانك﴾ فذلك للسورة ومعناها ذكرهم بالكتاب المبين فإنما يسرناه أي: سهلناه حيث أنزلناه عربيًا بلسانك بلغتك إرادة أن يفهمه قومك فيتذكروا.

فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾.

﴿فارتقب﴾ فانتظر ما يحل بهم ﴿انهم مرتقبون﴾ ما يحل بك متربصون بك الدوائر عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة حمّ الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك[2]، وعنه عليه السلام من قرأ حم التي ينكر فيها الدخان في ليلة جمعة أصبح مغفورًا له[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الجاثية مكية

حمٓ ﴿١﴾.

﴿حمٓ﴾ إن جعلتها اسمًا مبتدأ مخبرًا عنه.

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾.

بـ ﴿تنزيل الكتاب﴾ لم يكن بدّ من حذف مضاف تقديره تنزيل حم تنزيل الكتاب و﴿من الله﴾ صلة للتنزيل وإن جعلتها تعديدًا للحروف كان تنزيل الكتاب مبتدأ، والظرف خبرًا.

إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾.

﴿إنّ في السموات والأرض﴾ يجوز أن يكون على ظاهره وأن يكون المعنى: إنّ في خلق السموات.

وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾.

لقوله: ﴿وفي خلقكم﴾.

فإن قُلْتَ: علام عطف ﴿وما يبث﴾ أعلى الخلق المضاف أم على الضمير المضاف إليه **قُلْتُ:** بل على المضاف لأنّ المضاف إليه ضمير متصل مجرور يقبح العطف عليه استقبحوا أن يقال مررت بك وزيد، وهذا أبوك وعمرو وكذلك إن أكدوه كرهوا أن يقولوا مررت بك أنت وزيد، وقرئ آيات لقوم يوقنون بالنصب والرفع على قولك إنّ زيدًا في الدار وعمرًا في السوق أو وعمرو في السوق.

فإن قُلْتَ: العطف على عاملين على مذهب الأخفش سديد لا مقال فيه وقد أباه سيبويه، فما وجه تخريج الآية عنده **قُلْتُ:** فيه وجهان عنده أحدهما أن يكون على إضمار في والذي حسنه تقدّم ذكره في الآيتين قبلها ويعضده قراءة ابن مسعود والثاني أن ينتصب آيات على الاختصاص بعد انقضاء المجرور معطوفًا على ما قبله على التكرير ورفعها بإضمار هي.

وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾.

وأمّا قوله: ﴿آيات لقوم يعقلون﴾ فمن العطف على عاملين سواء نصبت أو رفعت فالعاملان إذا نصبت هما إن وفي أقيمت الواو مقامهما فعملت الجر في اختلاف الليل والنهار والنصب في آيات وإذا رفعت فالعاملان الابتداء وفي عملت الرفع في آيات والجر في واختلاف، وقرأ ابن مسعود وفي اختلاف الليل والنهار وقرئ ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ بالرفع، وقرئ آية وكذلك وما يبث من دابة آية، وقرئ وتصريف الريح والمعنى إنّ المنصفين من العباد إذا نظروا في السموات والأرض النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة وأنه لا بدّ لها من صانع فآمنوا بالله، واقرّوا فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال وهيئة إلى هيئة وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف

---

(1) قال أحمد: هذا الذي نكره مبني على أنّ الموتة بدل على طريقة بني تميم المجوز فيها البدل من غير الجنس، وأما على طريقة الحجازيين فانتصبت الموتة استثناء منقطعاً، وسر اللغة التميمية بناء النفي المراد على وجه لا يبقى للسامع مطمعاً في الإثبات، فيقولون: ما فيها أحداً لا حمار، على معنى إن كان الحمار من الآدميين ففيها أحد، فيعلقون الثبوت على أمر محال حتماً بالنفي، وعليه حمل الزمخشري قل لا يعلم من في السموات والأرض= = الغيب إلا الله، أي: إن كان الله ممن في السموات والأرض ففي السموات والأرض من يعلم الغيب، فإذا نفر السامع من ثبوت الأوّل تعدت النفرة إلى ثبوت الثاني، فجزمت بالنفي، والله أعلم.

(2) أخرجه الترمذي في المصدر السابق، (الحديث رقم: 2888).

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل حَم الدخان، (الحديث رقم: 2889).

الحيوان ازدادوا إيمانًا وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدّد في كل وقت كاختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وحياة الأرض بها بعد موتها ﴿وتصريف الرياح﴾ جنوبًا وشمالاً وقبولاً ودبورًا علقوا واستحكم علمهم وخلص يقينهم وسمى المطر رزقًا لأنه سبب الرزق.

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾.

﴿تلك﴾ إشارة إلى الآيات المتقدّمة أي تلك الآيات آيات الله ﴿ونتلوها﴾ في محل الحال أي متلوة ﴿عليك بالحق﴾ والعامل ما دلّ عليه تلك من معنى الإشارة ونحوه هذا بعلي شيخًا، وقرئ يتلوها بالياء ﴿بعد الله وآياته﴾ أي بعد آيات الله كقولهم: أعجبني زيد وكرمه يريدون أعجبني كرم زيد، ويجوز أن يراد بعد حديث الله وهو كتابه أو قرآنه كقوله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾، وقرئ ﴿يؤمنون﴾ بالتاء والياء.

وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾.

الأفاك الكذاب والأثيم المتبالغ في اقتراف الآثام.

يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾.

﴿يصر﴾ يقبل على كفره ويقيم عليه وأصله من إصرار الحمار على العانة وهو أن ينحى عليها صارا أذنيه ﴿مستكبرًا﴾ عن الإيمان بالآيات والإذعان لما ينطق به من الحق ازدريًا لها معجبًا بما عنده قيل نزلت في النضر بن الحرث، وما كان يشتري من أحاديث الأعاجم ويشغل الناس بها عن استماع القرآن والآية عامّة في كل ما كان مضارًا لدين الله.

فإن قُلْتَ: ما معنى ثم في قوله ثم يصر مستكبرًا؟ **قُلْتُ:** كمعناه في قول القائل: يرى غمرات الموت ثم يزورها، وذلك أنّ غمرات الموت حقيقة بأن ينجو رائيها بنفسه ويطلب الفرار عنها وأمّا زيارتها والإقدام على مزاولتها فأمر مستبعد فمعنى ثم الإيذان بأن فعل المقدّم عليها بعدما رآها وعاينها شيء يستبعد في العادات والطباع وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق من تليت عليه وسمعها كان مستبعدًا في العقول إصراره على الضلالة عندها، واستكباره عن الإيمان بها ﴿كأن﴾ مخففة والأصل كأنه لم يسمعها والضمير ضمير الشأن كما في قوله: كأن ظبية تعطو إلى ناضر السلم، ومحل الجملة النصب على الحال أي يصر مثل غير السامع.

وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾.

﴿وإذا﴾ بلغه شيء من آياتنا وعلم أنه منها ﴿اتخذها﴾ أي: اتخذ الآيات ﴿هزوًا﴾ ولم يقل اتخذه للإشعار بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه ويحتمل وإذا علم من آياتنا شيئًا يمكن أن يتشبث به المعاند ويجدله محملاً يتسلق به على الطعن والغميزة افترضه واتخذ آيات الله هزوًا وذلك نحو افتراض ابن الزبعري قوله عز وجل: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾[1] ومغالطته رسول الله ﷺ وقوله خصمتك ويجوز أن يرجع الضمير إلى شيء لأنه في معنى الآية كقول أبي العتاهية:

نفسي بشيء من الدنيا معلقة ... الله والقائم المهدي يكفيها

حيث أراد عتبة، وقرئ علم ﴿أولئك﴾ إشارة إلى كل أفاك أثيم لشموله الأفاكين والوراء اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدام قال:

أليس ورائي أن تراخت منيتي ... أب مع الولدان أزحف كالنسر

ومنه قوله عز وجل:

مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾.

﴿من ورائهم﴾ أي من قدامهم ﴿ما كسبوا﴾ من الأموال في رحلهم ومتاجرهم ﴿ولا ما اتخذوا من دون الله﴾ من الأوثان.

هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾.

﴿هذا﴾ إشارة إلى القرآن يدل عليه قوله تعالى: ﴿والذين كفروا بآيات ربهم﴾ لأنّ آيات ربهم هي القرآن أي: هذا القرآن كامل في الهداية كما تقول: زيد رجل كامل في الرجولية وأيما رجل والرجز أشدّ العذاب، وقرئ بحر أليم ورفعه.

۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾.

﴿ولتبتغوا من فضله﴾ بالتجارة أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان، واستخراج اللحم الطري وغير ذلك من منافع البحر.

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى منه في قوله: ﴿جميعًا منه﴾ وما موقعها من الإعراب؟ **قُلْتُ:** هي واقعة موقع الحال، والمعنى: أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده يعني: أنه مكونها وموجدها بقدرته وحكمته، ثم مسخرها لخلقه ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره

(1) سورة الأنبياء، الآية: 98.

هي جميعًا منه، وأن يكون وسخر لكم تأكيدًا لقوله تعالى: ﴿سخر لكم﴾[1] ثم ابتدئ قوله: ﴿ما في السمٰوات وما في الأرض جميعًا﴾ منه وأن يكون ما في الأرض مبتدأ ومنه خبره، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما منه وقرأ سلمة بن محارب منه على أن يكون منه فاعل سخر على الإسناد المجازي أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي ذلك، أو هو منه حذف المقول لأنّ الجواب دال عليه والمعنى: قل لهم اغفروا يغفروا.

قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآَ فَعَلَيْهَا ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾.

﴿لا يرجون أيام الله﴾ لا يتوقعون وقائع الله بأعدائه من قولهم لوقائع العرب أيام العرب وقيل: لا يأملون الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها قيل: نزلت قبل آية القتال، ثم نسخ حكمها وقيل: نزولها في عمر رضي الله عنه وقد شتمه رجل من غفار فهَّم أن يبطش به وعن سعيد بن المسيب كنا بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأ: قارئ هذه الآية فقال عمر: ليجزي عمر بما صنع.

لنجزي تعليل الأمر بالمغفرة أي إنما أمروا بأن يغفروا لما أراده الله من توفيتهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة.

فإن قُلْتَ: قوله ﴿قومًا﴾ ما وجه تنكيره وإنما أراد الذين آمنوا وهم معارف؟ **قُلْتُ:** هو مدح لهم وثناء عليهم كأنه قيل: ليجزي أيما قوم وقومًا مخصوصين لصبرهم، وإغضائهم على أذى أعدائهم من الكفار وعلى ما كانوا يجرعونهم من الغصص ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الثواب العظيم بكظم الغيظ واحتمال المكروه، ومعنى قول عمر: ليجزي عمر بما صنع ليجزي بصبره واحتماله وقوله لرسول الله ﷺ عند نزول الآية: والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهي وقرئ: ليجزي قومًا أي الله عز وجل، وليجزي قوم وليجزي قومًا على معنى: وليجزي الجزاء قومًا.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾.

﴿الكتاب﴾ التوراة ﴿والحكم﴾ الحكمة والفقه أو فصل الخصومات بين الناس لأنّ الملك كان فيهم والنبوّة ﴿من الطيبات﴾ مما أحل الله لهم وأطاب من الأرزاق ﴿وفضلناهم على العالمين﴾ حيث لم نؤت غيرهم مثل ما.

وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾.

آتيناهم ﴿بينات﴾ آيات ومعجزات ﴿من الأمر﴾ من أمر الدين، فما وقع بينهم الخلاف في الدين ﴿إلا من بعد ما جاءهم﴾ ما هو موجب لزوال الخلاف وهو العلم، وإنما اختلفوا لبغي حدث بينهم أو لعداوة وحسد.

ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾.

﴿على شريعة﴾ على طريقة ومنهاج ﴿من الأمر﴾ من أمر الدين فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والحجج ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال ودينهم المبني على هوى وبدعة وهم رؤساء قريش حين قالوا ارجع إلى دين آبائك.

إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾.

ولا توالهم إنما يوالي الظالمين من هو ظالم مثلهم. وأما المتقون فوليهم الله وهم موالوه وما أبين الفصل بين الولايتين.

هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾.

﴿هذا﴾ القرآن ﴿بصائر للناس﴾ جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب كما جعل روحًا وحياة وهو هدى من الضلالة ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن وقرئ هذه بصائر أي هذه الآيات.

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾.

﴿أم﴾ منقطعة ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان والاجتراح: الاكتساب ومنه الجوارح وفلان جارحة أهله أي كاسبهم ﴿أن نجعلهم﴾ أن نصيرهم وهو من جعل المتعدي إلى مفعولين فأوّلهما الضمير والثاني الكاف والجملة التي هي ﴿سواء محياهم ومماتهم﴾ بدل من الكاف لأنّ الجملة تقع مفعولاً ثانيًا فكانت في حكم المفرد الا تراك لو قلت أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم كان سديدًا كما تقول ظننت زيدًا أبوه منطلق، ومن قرأ سواء بالنصب أجرى سواء مجرى مستويًا وارتفع محياهم ومماتهم على الفاعلية وكان مفردًا غير جملة ومن قرأ ومماتهم بالنصب جعل محياهم ومماتهم ظرفين كمقدم الحاج وخفوق النجم أي سواء في محياهم وفي مماتهم، والمعنى إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محيا وأن يستووا مماتًا لافتراق أحوالهم أحياء حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات وأولئك على ركوب المعاصي ومماتًا حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والوصول إلى ثواب الله

(1) سورة الجاثية، الآية: 12.

ورضوانه، وأولئك على اليأس من رحمة الله والوصول إلى هول ما أعدّ لهم، وقيل: معناه إنكار أن يستووا في الممات كما استووا في الحياة لأنّ المسيئين والمحسنين مستوٍ محياهم في الرزق والصحة وإنما يفترقون في الممات، وقيل: سواء محياهم ومماتهم كلام مستأنف على معنى أن محيا المسيئين ومماتهم سواء وكذلك محيا المحسنين ومماتهم كل يموت على حسب ما عاش عليه، وعن تميم الداري رضي الله عنه أنه كان يصلي ذات ليلة عند المقام فبلغ هذه الآية، فجعل يبكي ويردّد إلى الصباح: ساء ما يحكمون: وعن الفضيل أنه بلغها فجعل يردّدها ويبكي ويقول: يا فضيل ليت شعري من أي الفريقين أنت.

وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿ولتجزى﴾ معطوف على **﴿بالحق﴾** لأنّ فيه معنى التعليل أو على معلل محذوف تقديره خلق الله السموات والأرض ليدل به على قدرته ولتجزى كل نفس.

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾.

أي هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعوه إليه فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلٰهه، وقرئ: **﴿آلهة هواه﴾** لأنه كان يستحسن الحجر فيعبده فإذا رأى ما هو أحسن رفضه إليه فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى يعبد كل وقت واحدًا منها **﴿وأضله الله على علم﴾** وتركه عن الهداية واللطف وخذله على علم عالمًا بأنّ ذلك لا يجدي عليه وأنه ممن لا لطف له أو مع علمه بوجوه الهداية وإحاطته بأنواع الألطاف المحصلة والمقرّبة **﴿فمن يهديه من بعد﴾** إضلال **﴿الله﴾**، وقرئ: غشاوة بالحركات الثلاث وغشوة بالكسر والفتح وقرئ: تتذكرون.

وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾.

﴿نموت ونحيي﴾ نموت نحن ويحيا أولادنا أو يموت بعض ويحيا بعض، أو نكون موات لطفًا في الأصلاب ونحيا بعد ذلك أو يصيبنا الأمران الموت والحياة يريدون الحياة في الدنيا والموت بعدها وليس وراء ذلك حياة، وقرئ: نحيا بضم النون، وقرئ: إلا دهر يمر وما يقولون ذلك عن علم ولكن عن ظنّ وتخمين كانوا يزعمون أنّ مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان، وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان ومنه قوله عليه السلام: لا تسبوا الدهر فإنّ الله هو الدهر[1] أي فإنّ الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر، وقرئ: حجتهم بالنصب والرفع على تقديم خبر كان وتأخيره.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾.

فإن قُلْتَ: لم سمى قولهم حجة وليس بحجة؟ **قُلْتُ:** لأنهم أدلوا به كما يدلي المحتج بحجته وساقوه مساقها فسميت حجة على سبيل التهكم أو لأنه في حسبانهم وتقديرهم حجة أو لأنه في أسلوب قولهم تحية بينهم ضرب وجيع كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة، والمراد نفي أن تكون لهم حجة البتة.

قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾.

فإن قُلْتَ: كيف وقع قوله: **﴿قل الله يحييكم﴾** جوابًا لقولهم ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين؟ **قُلْتُ:** لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل وحسوا أنّ ما قالوه قول مبكت ألزموا ما هم مقرون به من أنّ الله عز وجل هو الذي يحييهم، ثم يميتهم وضم إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغوا إلى داعي الحق وهو جمعهم إلى يوم القيامة ومن كان قادرًا على ذلك كان قادرًا على الإتيان بآبائهم وكان أهون شيء عليه.

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾.

عامل النصب في **﴿ويوم تقوم﴾** يخسر، و **﴿يومئذٍ﴾** بدل من يوم تقوم.

وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾.

﴿جاثية﴾ باركة مستوفزة على الركب، وقرئ: جانية والجثوّ أشد استيفازًا من الجثوّ لأن الجاذي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه وعن ابن عباس رضي الله عنهما جاثية مجتمعة، وعن قتادة جماعات من الجثوة وهي الجماعة وجمعها جثى وفي الحديث: من جثى جهنم[2]. وقرئ: **﴿كل امّة﴾** على الابتداء وكل أمة على الإبدال من كل أمة **﴿إلى كتابها﴾** إلى صحائف أعمالها فاكتفى باسم

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الجاثية، (الحديث رقم: 4827)، ومسلم في كتاب: الألفاظ من الأدب، باب: النهي عن سب الدهر، (الحديث رقم: 2/2246).

(2) أخرجه ابن حبان، في كتاب: بدء التاريخ، باب: بدء الخلق (الحديث = رقم: 6233)، أخرجه الترمذي في كتاب: الأمثال، باب: ما جاء في فضل الصلاة والصيام والصدقة، (الحديث رقم: 2863)، وأحمد في المسند 4/130. والحاكم في المستدرك 1/117. وأخرجه البخاري في التفسير، سورة بني إسرائيل، (الحديث رقم: 4718).

الجنس كقوله تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾[1] ﴿اليوم تجزون﴾ محمول على القول.

هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾.

فإن قُلْتَ: كيف أضيف الكتاب إليهم وإلى الله عزّ وجل؟ **قُلْتُ:** الإضافة تكون للملابسة وقد لابسهم ولابسه أما ملابسته إياهم فلأن أعمالهم مثبتة فيه، وأما ملابسته إياه فلأنه مالكه والآمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمال عباده **﴿ينطق عليكم﴾** يشهد عليكم بما عملتم **﴿بالحق﴾** من غير زيادة ولا نقصان **﴿إنا كنا نستنسخ﴾** الملائكة **﴿ما كنتم تعملون﴾** أي نستكتبهم أعمالكم.

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾.

﴿في رحمته﴾ في جنته.

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾.

وجواب أما محذوف تقديره: وأما الذين كفروا فيقال لهم **﴿أفلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾**، والمعنى: ألم يأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم فحذف المعطوف عليه.

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾.

وقرئ: **﴿والساعة﴾** بالنصب عطفًا على الوعد وبالرفع عطفًا على محل إن واسمها **﴿ما الساعة﴾** أي شيء الساعة.

فإن قُلْتَ: ما معنى إن نظن إلا ظنًا؟ **قُلْتُ:** أصله نظن ظنًا ومعناه إثبات الظن فحسب فادخل حرفا النفي والاستثناء ليفاد إثبات الظن مع نفي ما سواه وزيد نفي ما سوى الظن توكيدًا بقوله: **﴿وما نحن بمستيقنين﴾**.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾.

﴿سيئات ما عملوا﴾. أي قبائح أعمالهم أو عقوبات أعمالهم السيئات كقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾[2].

وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾.

﴿ننساكم﴾ نترككم في العذاب كما تركتم عدّة **﴿لقاء يومكم هذا﴾** وهي الطاعة أو نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالى به كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم ولم تخطروه ببال كالشيء الذي يطرح نسيًا منسيًا.

فإن قُلْتَ: ما معنى إضافة اللقاء إلى اليوم؟ **قُلْتُ:** كمعنى إضافة المكر في قوله تعالى: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾[3] أي نسيتم لقاء الله في يومكم هذا ولقاء جزائه.

ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾.

وقرئ: لا يخرجون بفتح الياء **﴿ولا هم يستعتبون﴾** ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أي يرضوه.

فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾.

﴿فلله الحمد﴾ فاحمدوا الله الذي هو ربكم، ورب كل شيء من السموات والأرض والعالمين فإن مثل هذه الربوبية العامة يوجب الحمد والثناء على كل مربوب وكبروه.

وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾.

فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته **﴿في السموات والأرض﴾** وحق مثله أن يتكبر ويعظم عن رسول الله ﷺ: «من قرأ حمّ الجاثية ستر الله عورته وسكن روعته يوم الحساب»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأحقاف مكية

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾.

﴿إلا بالحق﴾ إلا خلقًا ملتبسًا بالحكمة والغرض الصحيح **﴿و﴾** بتقدير **﴿أجل مسمى﴾** ينتهي إليه وهو يوم القيامة **﴿والذين كفروا عما انذروا﴾** من هول ذلك اليوم الذي لا بد لكل خلق من انتهائه إليه **﴿معرضون﴾** لا يؤمنون به ولا يهتمون بالاستعداد له، ويجوز أن تكون ما مصدرية أي عن إنذارهم ذلك اليوم.

قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن

---

(1) سورة الكهف، الآية: 49.

(2) سورة الشورى، الآية: 40.

(3) سورة سبأ، الآية: 33.

(4) ذكره الثعلبي، وذكره الواحدي وابن مردويه في التفسير، الزيلعي 3/276.